سبينوزا وفصال زيجة اللاهوت بالسياسة

مبارك الحمداني

يقدم المفكر هاشم صالح في مطارحته النقدية المنشورة تحت عنوان : "سبينوزا بين الدين والفلسفة". قراءة نقدية تفصيلية للبراديغمات الأساسية ومحددات الراهنية الاجتماعية التي أنتج خلالها الفيلسوف الهولندي سبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧) كتابه الموسوم (مقالة في اللاهوت السياسي). حيث نجد جليا أن هاشم صالح، وكعادة مطارحاته، يأخذ بالمتلقي نحو إعادة اشتقاق التساؤلات الكبرى بالنسبة للنص المنتج بدون عزله عن السياقات الحضارية والسوسيولوجية التي أنتج فيها. يقول صالح حول مقالة سبينوزا "لقد أراد تحديد العلاقات بين الدين والسياسة، أو بين رجال الدين ورجال الحكم. وأراد - أيضًا وبالدرجة الأولى - البرهنة على الشيء الأساسي التالي: وهي أنّ حرية التفلسف، أو حرية الضمير والمعتقد والكلام، لا تضرّ أبدًا بالسلام العام للدولة، ولا تؤدي إلى الفسق والفجور كما يدعي اللاهوتيون..." .

إنّ قراءة هذا الاتزان في فلسفة سبينوزا تقتضي بالضرورة تتبع مسار الأحداث البارزة في مسيرة حياته. فكما جرت العادة أنّ الأحداث المفصليّة في مسيرة أي مفكر بالعادة ما يوازيها خلخلة كبرى جذرية لمسارات التفكير وبراديغمات الطرح الفكري. ونحن نجد عند سبينوزا في بدايات التوجه إلى مشروعه الفلسفي نجد أنّه لم ينطلق بذات الكلاسيكية التي ينطلق منها المفكرون عادة بطرقهم الراديكالية، حيث إنّ سبينوزا كان يعيش حياة متخفّية عن الأنظار إلى حد بعيد، وهذا في تقديرنا ما أكسبه مساحة كافية لتشريح الأفكار، ومعالجة نظم المعرفة التي اشتغل عليها. فبعد أن قطع علاقاته مع طائفته الأصلية (أي اليهودية)، وبعد أن أطلقت فتوى ضده من قبل الحاخام الأكبر في أمستردام بتهمة الكفر أو الخروج على الدين، راح يقيم علاقات وثيقة مع جماعة البروتستانتيين الليبراليين، أي غير الأصوليين وغير المتزمتين. هذا بدوره نجده ينعكس بشكل أو بآخر على نطاقات فلسفته. فالعزلة أو حالة تفضيل عدم الاصطدام المباشر مع السلطة مكن سبينوزا من اجتراح آفاق أبعد في التنبؤ بمستوى محدودية الحرية الذي كانت تعايشه هولندا خصوصًا في ظل كونها البلد الأكثر تسامحاً في راهنية تلك الفترة. من هنا جاءت مقالة في اللاهوت السياسي لتحكي هواجس رئيسة اجترحها فكر سبينوزا انطلقت من إحساس سبينوزا الجلي أنّه برغم أنّ الدولة كانت متسامحة إلى حد بعيد إلا أنّ الكنيسة لم تكن كذلك. حيث كان هناك تفاوت كبير بين الحاكم جان دوفيت المشهور باستنارته وعقلانيته التي مهدت لهولندا ازدهارًا معهوداً في العلوم والجامعات، وإدخال الفلسفة الحديثة إليها، وفي الجانب الآخر هناك رجال الدين المتعصبون، حيث من المعروف أنّ المتشددين البروتستانتيين كانوا مرتبطين بالنظام الملكي المخلوع ويتمنون عودته لأنّهم يكرهون جو الحرية والتسامح، ولا يستطيعون تحمل كل هذه الزندقة الفكرية. يمكننا القول في هذا الصدد، وبحسب مطارحة صالح، إنّ الدوافع الرئيسية التي حتمت تقديم مقالة في اللاهوت السياسي كانت تتلخص في أربعة دوافع رئيسة وهي على النحو الموالي: (النظرة التجريدية الشمولية لفلسفة سبينوزا التي يتجاوز بها الحالة الهولندية لكي يشمل الحالة الأوروبية وربما الكونية بأسرها - حالة الصراع المتفجر بين اللاهوت والسياسة في الحالة الأوروبية - الصراع حول الحاجة إلى تحقيق الكتاب المقدس تحقيقًا لغويًا وتاريخيًا من أجل التوصل إلى نسخة صحيحة أو أقرب ما تكون إلى الصحة، مما قد يؤدي إلى خلق حالات تفسير جديدة - صراع الفلسفة واللاهوت، وهو صراع يتجاوز حدود المسيحية الأوروبية لكي يشمل الإسلام والأرثوذكسية الشرقية وسواها).

انطلق سبينوزا في معالجته الفلسفيّة لهذه الصراعات أولاً من جذور المشكلة بالوقوف على المايزة بين نوعين من المعارف. المعارف القائمة على التعاليم التي تخص الروحانيات والتي تستمد من الكتابات المقدسة فقط، وليس من تعاليم النور الطبيعي؛ أي العقل. وبالتالي فإنّ هذا النمط من المعرفة القائمة على الوحي يتمايز كليًا عن مقابلة نمط آخر وهو المعرفة الطبيعية أو العقلانية، سواء فيما يخص موضوعها أم مبادئها الأساسيّة أم وسائلها ومنهجيتها. فيما حدد على وجه الخصوص مهام كل من الفيلسوف العقلاني الذي حصر دوره بالتفلسف ودراسة الطبيعة دون أن يأخذ الكتابات المقدسة بعين الاعتبار أبدًا. وفي الجانب الآخر رجل الدين (أو المؤمن) الذي يقرأ الكتابات المقدسة أو يفسرها دون أن يأخذ بعين الاعتبار المبادئ الفلسفية أو العقلانية الخارجة على الوحي.

ومن هنا يقول سبينوزا بمقولة (القطيعة) أو اللاعلاقة بوصفها الملجأ الرئيس لحل الإشكال القائم. وهذا في تقديري يعود بفلسفة سبينوزا إلى الإشكال ذاته الذي انطلقت منه المعالجات التي سبقته وخصوصًا معالجات أستاذه ديكارت. هل هناك أفق فعلي لتطبيق هذه القطيعة..؟!

هنا يمكننا إثراء مطارحة هاشم صالح بالتنقيب عن الاتجاهات التطبيقية (الواقعية) التي كان يرتهن إليها الواقع الهولندي في عصره فيما يتعلق بالكتابات المقدسة. حيث نجد أنّ هناك توجهين كانا سائدين في شأن ذلك:

أول : يقول بفظاظة إنّ الكتابات المقدسة كانت تحتوي على معنى غير ظاهر (خفي)، مجهول خارج عن إطار الإدراك البشري الحسي، بحيث لا يمكن التوصل إليه إلا عن طريق العقل الخارق للطبيعة، أي ما فوق البشري أو العقل الملهم والإلهي..

وهناك آخر: يقول بإمكانية التوصّل إلى معنى هذه الكتابات عن طريق العقل الطبيعي، أي البشري. وعندئذ فإنّ من خلال ذلك يمكن التأسيس لمفهوم الحقيقة. وهذا هو رأي المؤمنين العقلانيين إلى حد ما أو المتفلسفين من أمثال موسى بن ميمون المعاصر لابن رشد والذي حاول المصالحة بين الديانة اليهودية والفلسفة كما فعل فيلسوفنا الكبير فيما يخص الإسلام.

ولكن كيف استطاع سبينوزا معالجة هذه القضية بوصفها مثاراً تطبيقاً لإحدى إشكالات تطبيق مفهوم القطيعة / اللاعلاقة فيما يتعلق بالمقدس والعقلاني. حيث نجد أنه كان يرفض الاتجاهين تماما حيث يقول إن الكتابات المقدسة تحتوي أحياناً على أشياء لا يمكن التوفيق بينها وبين المعرفة العقلانية كالمعجزات مثلا أو الحكايات الخارقة للطبيعة. وبالتالي فلا ينبغي أن نبحث فيها عن تفسيرات مقنعة لطبيعة الأشياء والظواهر، ولا حتى لطبيعة الله. وإنما ينبغي أن نبحث فيها عن (الموعظة الحسنة) التي تهدينا أخلاقياً وتعلّمنا كيف ينبغي أن نعيش ونتعامل مع الآخرين. فالواقع أن تبشير الأنبياء والحواريين يهدف فقط إلى التأثير على عواطفنا وقلوبنا لكي نصبح مستقيمين في سلوكنا، وأخلاقيين في تعاملنا مع بعضنا بعضا. مما يؤكد على نظرته للدين القائلة بأنّه يؤمن للناس البسطاء الطمأنينة النفسية التي لا يمكن أن يجدوها في أي مكان آخر. إنّ مقالة اللاهوت السياسي لسبينوزا ما هي إلا (صرخة) فكرية كبرى في وجه الزيجة الخبيثة على المدى (اللاهوت/ السياسة). لقد كانت بشكل أو بآخر منطلقاً بارزاً مشهوداً في المشهد الإنساني للدفاع عن حرية الفكر، أو حرية الضمير والمعتقد، ضد تعصب اللاهوتيين ورجال الدين. إنّ ما توصل إليه سبينوزا من ضرورة ملحة لإخضاع السلطة الدينية إلى السلطة السياسية المدنية يوقفنا عند هاجس آخر بل وقاعدة فكرية فلسفية مهمة ينبغي أن نتتبعها ونتتبع تأثيراتها في واقعنا العربي اليوم وهي أنّ من يدعي المعرفة، أيا كان شكل هذه المعرفة بات يمتلك "السلطة" بسبب الربط التاريخي بين ثنائية المعرفة الحقيقية ولكن الخطر الأكبر أن يرتبط مفهوم الحقيقية بمفهوم الحق وذلك حينما ترتبط تلك المعرفة (بفهم قاصر مشوه للنص الديني). حينها يصبح التعارض مع هذه السلطة تعارضًا مع الآلهة في نظر من يمثلون السلطة، مما قد يترتب عليه امتلاك صاحب السلطة الحق في ممارسة ما يراه ضروريًا لإحقاق "الحق" فيصبح العنف والاستبداد والاضطهاد وأشكالها مشاريع مسوغة، بل وتغدو هي المولود الأهم من مواليد تلك الزيجة الخبيثة.

إن كتاب سبينوزا وبحسب مطارحة صالح نجده يلعب على ناحيتين بارزتين الأولى ماثلة في النقد التفصيلي لعلم أصول الدين (أو علم اللاهوت) وذلك يتجلى من خلال التفسير العقلاني الذي قدمه سبينوزا عن الكتابات المقدسة والذي يهدف بالدرجة الأولى إلى بلورة نوع الأخلاق الاجتماعية التي تجنّب البشر الصراعات الطائفية والمذهبية. أمّا من جانب آخر فهو يحاول التأسيس لطلاق تلك الزيجة بين اللاهوت والسياسة من خلال صك نظرية جديدة للسلطة السياسية، لأصلها ومرتكزاتها.

إن هذا الكتاب يشعل الهاجس التاريخي الدائم ليوقفنا عند التساؤل: كم دفع مفكرو أوروبا من أثمان في محاولاتهم الجادة لتفكيك قنابل الأصولية المسيحية الموقوتة، وتحرير العقول من استعمار الكنيسة. وهذا ما نشهده اليوم وعبر عقود سالفة في مجتمعاتنا العربية من صراع متأصل يشتد عنوة مع الزمن بين المثقفين والفلاسفة والمفكرين المجددين وبين التيّارات والحركات الإسلامية. التاريخ يقول دائمًا "لكي تفكر بحرية ينبغي أن ترحل إلى الخارج بشكل (مباشر) أو (معنوي) على الأقل وإلا فسوف تظل خاضعا للأيديولوجيا الأصولية المهيمنة على المجتمع من المهد إلى اللحد.

mu7k20@gmail.com